العراق .. وما بعده ، وما قبله ! (1)

21-2-2003

محمد الأحمري

ليس المقصود بالعامل الشخصي هنا ما يردده كثيرون من أن الحرب هي انتقام الابن بوش للأب، ولكن المراد هنا أن حملة إعادة انتخاب بوش للرئاسة؛ يهم فيه وجود سجل من نجاح شخصي؛ فالاقتصاد لا يساعده في المدى المنظور، والعرب والإرهاب قد لا يخدمه طويلاً،على رغم فائدة أن تخيف شعباً دائماً, ثم تزعم له أنك سر أمانه، كما تفعل الإدارة الموجودة, وتحقيق ما عجز عنه في أفغانستان من أن يشخص المشكلة في "صدام" ثم يسقطه، فهذا نصر كبير, وسبب للادعاء وإعادة الانتخابات له ولحزبه ؛ والجمهوريون يريدون هذه المسألة بأي طريقة، ولعلها تنقذهم من خسارة تلوح في الأفق ؛ لأن الشعب لن يطيق التخويف الطويل، والكساد الأطول, ومصادرة الكثير من الحريات والضرائب الدائمة, وبشكل مباشر وغيره يعد الجمهوريون الشعب بخزائن العراق، وببترول رخيص، وأمن، وهدم لعاصمة الإمبراطورية الإسلامية لخمسة قرون ويزيد ؛ وهذه لها آثارها في المخيلة الدينية التراثية التي تبُنَى هذه الأيام .

(1)

منذ خرجت القوى الغربية تجتاح البحار والقارات، كانت تبحث عن الثروة والقوة، وتقتل كل ما يعترض طريقها، سواء كان هؤلاء , الهنود الحمر أو سكان أستراليا، أو سكان إفريقيا الذين نظرت لهم أوروبا وأمريكا بأنهم ثروة بشرية للبيع ولإنتاج الطاقة ، فقد كانوا وقود المزارع والتجارة والصناعة قبل عصر البترول . ولم يزل الغرب ينظر إلى المهاجرين على أنهم مصدر للطاقة البدنية والفكرية ولجلب أجيال جديدة . ، ،. ومن هنا ترى قوانين ألمانيا الجديدة في الحصول على مهاجرين جدد من ذوي الكفاءات في منطقة العالم العربي والإسلامي موارد خام ومصادر طبيعية للطاقة "أرض، وثروات, وكائنات بشرية". ثم كانت غنيمة البترول من أهم الغنائم في تاريخ البشرية، ومن الكتب الجيدة التي أرخت لهذه الثروة وتعاملاتها كتاب الغنيمة لـ:دانيال يرجن. ومن أهم الغنائم بترول الخليج وقد أرخ للصراع من بعده تشومسكي، وعنون الفصول الطويلة بنفس التسمية "الغنيمة". وليس وارداً في المخيلة الأمريكية أن تترك هذه "الغنيمة" لعربي قومي أو وطني أو إسلامي يتحكم بهذه الثروة , أو يفاوض في الأسعار. وقد نشرت جريدة واشنطن بوست على موقعها نصوصا موثقة بالصوت والصورة لعدد من خبراء البترول، تحدث فيها هؤلاء عن ما يزيد على ثلاثمائة بليون برميل من البترول العراقي، وأقل التقديرات ما بين مائتين ومائتين وخمسين بليون برميل - الذي رصدته أمريكا في السنوات الأخيرة - إضافة لما أعلن قديماً عنه من احتياطيات هائلة، تمثل في بعض التقديرات ربع الاحتياطي العالمي..

ولم تتغير مواقف الإدارات الأمريكية السابقة والحالية من كراهية الخير للعرب ، والحسد لهم ، ومحاولة تحقيق ما أسموه منذ أيام نيكسون بـ "خطأ الرب" .. تعالى عن قولهم، في أنه جعل البترول في غير المكان المناسب ! وأنهم سيسيطرون على مواطن النفط بأي طريقة ، وهذه حروب النفط من "فنزويلا وكولومبيا" إلى "البحر الأسود وجنوب السودان وشمال إفريقيا وغربها" قائمة ، وقد يحاولون أحياناً وضع أغلفة أخرى سرعان ما تهترئ وتظهر حقيقة الشراهة وحرمان ذوي الحقوق حقوقهم . ولجماعات الضغط البترولية دور كبير، ويبررون هذا بالإستراتيجية المستقبلية للبلاد ، فمن بين أكبر ثلاثين متبرع لانتخابات بوش - هناك خمسة عشر من تجار البترول وشركاته؛ فالحكومة أكثر الحكومات بترولية في تاريخ أمريكا، بما فيهم "بوش" من عائلة بترولية , و"تشيني"

كان يرأس شركة بترولية قبل منصبه الأخير، وأثرى بشكل فاحش بعد حرب الخليج الثانية من منصبه وعلاقاته البترولية , ومع أن دول البترول لا محيص لها من بيع بترولها مهما يكن نوع الحكومة البائعة أو المشترية. وقد قدم تشيني لإدارته تقريراً في مايو 2001 أكد فيه على الأهمية القصوى للحصول على كميات بترول كبيرة من الخارج وضرورة تأمينها ، إلى سنة 2020 . وذكر نسبة الزيادة القادمة لاستيراد البترول أنها ستزيد من 52% إلى 62% , ومن 10ملايين برميل يومياً إلى 16.7 مليون برميل يومياً. والوسيلة .. إقناع الموردين بزيادة الإنتاج ، وأن يبيعوا لأمريكا. "لوموند ديبلوماتك نوفمبر 2002""، عرضت تقريرا للحديث عن ثروة الخليج التي تقارب ثلث مخزون العالم ، وطريقة التعامل معها ، ويطالب التقرير الذي سبق أحداث نيويورك أن تسمح الدول البترولية بالتدخل الأكبر في تسويق واستخراج البترول , وأن تتدخل في تطوير البنية التحتية في هذه الدول من أجل إنتاج وتصدير أكثر. ويتحدث التقرير عن بترول فنزويلا و وسط آسيا وبحر قزوين ، والذي استغلت أحداث أفغانستان من أجله بشكل كبير ؛ فوزارة الدفاع تعترف في التقرير الصادر في أيلول/سبتمبر عام 2001 في المجلة العسكرية

Quadrennial Defense Review بأن "الولايات المتحدة وحلفاءها سيبقون مرتهنين في مصادر الطاقة للشرق الأوسط". وأن هذا المصدر قد يتعطل بفعل مختلف الوسائل العسكرية . ويخلص التقرير إلى أن الاستراتيجية العسكرية الأميركية "تعتمد على قدرة القوات الأميركية على إرسال قواتها إلى العالم أجمع" (المصدر السابق..) . هذا؛ ومن المهم أن ندرك أن ما يذكر من معدلات نمو في العالم غير البترولي اقتصادياً - كما يحدث في الهند والصين وإفريقيا وغيرها ، كل هذا يعني مزيداً من التنافس على البترول , وبهذا تزيد أهمية من يسيطر عليه , وعلى شركات إنتاجه، وعلى طرق وصوله.

(2)

في بداية حملته الانتخابية تحدث بوش عن بناء جيش القرن المقبل ، ووعد بتطوير السلاح وتقوية الجيش ، وكل ذلك في أيلول سبتمبر عام 1999. وذكر بوش أن من أهدافه " تطوير قدرة الولايات المتحدة على اجتياح بعض القوى الإقليمية المعادية مثل إيران أو العراق أو كوريا الشمالية"، لوموند ديبلوماتك "السابق . وقد أشار لهذا التوجه الجاهز من قبل هذا أكثر من شخص في الإدارة وخارجها ؛ فليس السبب فقط أحداث نيويورك - كما سيقول رامسفيلد. وقد قدم رامسفيلد ميزانية الجيش للسنة المالية 2003 وكانت: موازنة الدفاع بلغت 379 مليار دولار (بزيادة بلغت 45 مليار دولار عن موازنة العام 2002) صرح قائلاً: "إننا في حاجة إلى قوات مسلحة تتمتع بسرعة الانتشار ومتكاملة كلياً في ما بينها ، قادرة على الوصول سريعاً إلى ساحات القتال البعيدة , وعلى التعاون مع قواتنا الجوية والبحرية لضرب أعدائنا بسرعة وبدقة وبطريقة مدمرة، "لوموند "السابق". ثم تطور الأمر إلى ما اشتهر "بعقيدة بوش" في الضربات الوقائية، والتي لا تحتاج لوجود خطر حقيقي، فالمسألة استباقية أواحترازية."المصدر السابق". وهناك الضاغطون من شركات صناعة السلاح ، فشركة "مارتن لوكهيد" التي فازت - بعد أحداث نيويورك - بعقد طويل المدى مع وزارة الدفاع ؛ بعقد يزيد عن مائتي مليار دولاراً ، تحتاج لاستمرار الحروب، والصناعة العسكرية. وهنا تأتي أهمية استمرار الحروب، واستمرار المواجهات وعائداتها الخيالية؛ بل مراكز الأبحاث، منها ما يؤكد أن الاقتصاد الأمريكي يكسب كثيراً من الحروب، وأن طفرات الاقتصاد الأمريكي وإنقاذه تأتي بالطريقة القائمة، وهي إشعال الحروب الكبيرة المفيدة جداً . يقابلها مدارس تؤيد الإرهاق المستمر الصغير للمستعمرات، وأنه أسلم وأقل تكلفة، وأكثر عائدات. والغريب

أن التحليل القائل بسلبية الحروب المطلقة على الإمبراطورية هو تفسير مقبول, أو ليس مفضلاً على الأقل في أمريكا؛ فالتفوق العسكري يعطي تفوقاً تقنياً كبيراً، لأن معظم الأبحاث المفيدة مدنياً بدأن بحوثاً وتجارب عسكرية , ثم أثرت المجتمع في كل جوانبه ، فالطرق البرية والبحرية والجوية تبدأ عسكرية ثم تكون تجارية, والاختراعات يدفع لها الخوف من التفوق العسكري, ثم تكون في أيدي العامة بعد تجريدها من مهمتها الجزئية العسكرية؛ فتصبح مفيدة وممتعة للعالم, ووسيلة للتجارة، مثل الأقمار الصناعية، والإنترنت وغيرها. وليست قصة جديدة؛ فقد كانت نشأة "البريد" نفسه, نشأة سياسية وعسكرية قبل أن يرى فيه الناس ضرورة للحياة المدنية..

(3)

يشهد العالم الإسلامي كله نهضة دينية واسعة، وتكاتفاً، وأخوة وتفاعلاً، لم يسبق أن مر به في تاريخه منذ قرون، فمشاعر الأخوة والمودة والشعور بالظلم والاستهداف والحرب الدينية المعلنة ، وهناك تخوف كبير من نهوض للعالم الإسلامي لا يكنه المراقبون والاستراتيجيون في الحكومة الأمريكية ؛ بدءاً بصاحب نهاية التاريخ ، الذي صرع باستعصاء الإسلام على القيم الغربية ، وأكد ذلك بعده صاحب نظرية صراع الأديان ، أو الحضارات ؛ فنحن نعلم اليوم بأن الدم يغرق حدود الإسلام مع الأديان الأخرى من البلقان إلى روسيا والهند وإفريقيا والفلبين .

ويعترف مفكروا ومخططوا العلاقة, بأن العلاقة منذ بزوغ شمس الإسلام إلى اليوم هي علاقة صراع مع الغرب ، كتفاً بكتف في العالم الغربي ؛ فبلاد المسيحية ومستعمرات الدولة الرومانية هي عمق الإسلام . وهو اليوم يحاصر أوروبا كما لم يحاصرها في زمن سابق، فرغم الضعف لدوله؛ إلا أنه قوياً سكانياً وعقدياً وروحياً ، وينتشر , وله جاذبية تفوق أي مرحلة سابقة ، فليست فقط النساء يجذبهن رجال من العالم الإسلامي ، ولكن الشك والملل , والشعور بعدم الثقة بالمسيحية - عامل جذب مهم للغربيين ؛ فالصحافية التي روعها كما قيل رجال طالبان ، أسلمت ونشرت نصاً جميلاً عن سبب إسلامها ، من أهم ما فيه "مهانة" المسيحية، و"احتقار" اليهود لكنيسة المهد، وحسن خلق وتعامل المسلمين.

وفي العراق ومنطقة الخليج إقبال على الإسلام فاق كل التصورات ، فمن راقب وضع العراق قبل الحرب الثانية فإنه لا يكاد يرى امرأة بالزي الإسلامي ، ومن راقب ما يرى اليوم يرى العكس تماماً ، وهذا في المظهر ؛ أما الحقيقة على الأرض فقد تغيرت , حتى مواقف "صدام" نفسه من الدين ، وأصبحت الترقية في حزب البعث بمقدار ما يحفظ عضو "حزب البعث" من القرآن! وهناك خوف شديد من وقوع العراق في أيد إسلامية -شيعية غالباً- وتفردها بحكم البلاد . وقد اضطرت أمريكا للبحث وإرسال المندوبين لهذه الأحزاب الشيعية و"من مع" و"من ضد" تحديداً ، ومحاولة التعرف على طرق المشاركة في نظام لا ينفرد به الإسلاميون ، ولا يفرضون فيه قيمهم التي قد تخالف المصلحة القادمة ، والوضع لا يحتمل قيام دولة بديلة "لصدام" مستقلة القرار غير معروفة التوجه ؛ فالدخول إلى تفاصيل التفاصيل في مستقبل العراق لا يقبل التنازل من قبل اليهود في البيت الأبيض من أمثال "وولفتز" ومن المهم أن لا نعلق الأمور على التفسير الديني والدوافع الدينية فقط .. على كلا الجهتين ؛ لأننا قد نجد عوامل أخرى تتقدمها أحياناً ، وقد يضحي الأمريكان بعامل الدين في أي مرحلة من أجل غيره , مما يجد مما هو أهم منه في مرحلة ما، وقد يصادقون بعض دول العالم الإسلامي للقضاء على أي خطر أكب ر، أو منافس لهم ؛فقد تحالفوا وسوف يتحالفون مع بروتستانت ضد الكاثوليك ، ومع الكنيسة الشرقية ضد خصوم آخرين ، ومع شيوعيين ضد شيوعيين ، ويتحالفون مع السنة ضد

الشيعة ، ومع الشيعة ضد السنة ؛ فالجوع للقوة ، وللموارد ، والنفوذ .. أمور حقيقية ، والدين عامل مهم عندما يدخل هذه الحلبة ، ويستبعد عندما يكون ثانوياً , أو لا يخدم الرغبة ..(4)

صرحت مادلين أولبرايت أن فريقاً من الإدارة الأمريكية جاء للبيت الأبيض بفلسفة سابقة أن تصنع شيئا في العراق ، ومن هؤلاء من سبق أن كتبوا خطاباً في عهد كلينتون يطالبونه بالحل في هذه المسألة منذ عام 1993، ومنهم أنصار إسرائيل دينياً أو سياسياً، وعند اليهود الإسرائيليين أوهام غزو "بختنصر" ملك العراق في عصور سحيقة ، وذكريات الأسر البابلي ، وقد أصدروا أبحاثاً في هذا ، ويرون أن الوصول للقدس عاصمة مستقرة لهم يمر عبر بغداد , وهناك يأس شديد زاد في الفترة الأخيرة من مستقبل إسرائيل في حال وجود دول عربية مستقرة أو غنية ، وأصدر باحثون من أمثال جيمس روبن، ودانيال بايبس , ونتياهو , وكسينجر وغيرهم , عدداً كبيراً من الكلمات والنظريات التي تطالب بتدمير الإمكانات المالية والاقتصادية والسياسية والدينية في الدول القريبة من إسرائيل , وتضع المستقبل كله في يد الإدارة الحالية لإنقاذ إسرائيل من مصير أسود , واستجاب الفريق المتعصب دينياً، وليقول رامسفيلد عن الأراضي المحتلة "التي يقال أنها محتلة" ضارباً بقرارات حكومة أمريكا السابقة المعترفة بالاحتلال جانباً , وسائراً في معسكر أكثر الصهاينة تعصباً ؛ فأمن إسرائيل يفرض وجود جوار صديق , وبيئة غير عدوانية ضد إسرائيل ، وهذا الطلب هو من المشكلات العالقة بين أمريكا والدول العربية ، وتستضعف أمريكا بعض الدول في المنطقة , وتجبرها على علاقات قوية مع إسرائيل . وفتح أرضها وسماءها وموانئها واستثماراتها للصهاينة ، وهذا ما صرح به أسياسي أفورقي , وقال : إنه كان يشك في الإسرائيليين رغم ضغط الكونجرس عليه - كما أشار في مقابلة مع صحفي يهودي . وقد تضمن بيان المعارضة العراقية في لندن نصاً صريحاً في ذلك ، والمقصود الأساس به العلاقة الجيدة للعراق مستقبلاً مع إسرائيل.

. (5)

ليس المقصود بالعامل الشخصي هنا ما يردده كثيرون من أن الحرب هي انتقام الابن بوش للأب، ولكن المراد هنا أن حملة إعادة انتخاب بوش للرئاسة؛ يهم فيه وجود سجل من نجاح شخصي؛ فالاقتصاد لا يساعده في المدى المنظور، والعرب والإرهاب قد لا يخدمه طويلاً،على رغم فائدة أن تخيف شعباً دائماً, ثم تزعم له أنك سر أمانه، كما تفعل الإدارة الموجودة, وتحقيق ما عجز عنه في أفغانستان من أن يشخص المشكلة في "صدام" ثم يسقطه، فهذا نصر كبير, وسبب للادعاء وإعادة الانتخابات له ولحزبه ؛ والجمهوريون يريدون هذه المسألة بأي طريقة، ولعلها تنقذهم من خسارة تلوح في الأفق ؛ لأن الشعب لن يطيق التخويف الطويل، والكساد الأطول, ومصادرة الكثير من الحريات والضرائب الدائمة, وبشكل مباشر وغيره يعد الجمهوريون الشعب بخزائن العراق، وببترول رخيص، وأمن، وهدم لعاصمة الإمبراطورية الإسلامية لخمسة قرون ويزيد ؛ وهذه لها آثارها في المخيلة الدينية التراثية التي تبُنَى هذه الأيام .

للعودة للأعلى